نظريـــة التواصـــــل

نبيلة بونشادة
أستاذة مساعدة قسم –أ-
المركز الجامعي لميلة – الجزائر-

طرحت نظرية التواصل مفاهيم معرفية متباينة على مستويات عديدة، و تمظهرت بأشكال مختلفة ،و يعد مصطلح "التطويع" أحد آلياتها و مقوماتها، الذي تتخذه الشخصية أداة للتأثير في سلوك الآخر،و رؤاه، و قناعاته، فهو في تفاعله و إستراتجيته قائم على حضور طرفا التواصل (المرسل/ المرسل إليه).و كل طرف له دوره و حركيته داخل المسار السردي.

وإذا حاولنا إرساء دعائم هذا المصطلح من الوجهة اللغوية نجد أن لفظة "التطويع" مأخوذة من مادة طوع «الطَّوع: نقيض الكره. طاعه يطوعه و طاعه و الاسم الط
ملخص المداخلة: سيميائية التطويع في رواية " بحر الصمت" لياسمينة صالحوعة والطواعية.
ورجل طِّي أي طائع و طاع مقلوب ، كلاهما : مطيع (..) اللحياني : أطعته وأطعت له. ويقال أيضا : طعت له ، و أنا أطيع طاعة ،و لتفعلنه طوعا أو كرها ، وجاء فلان طائعا غير مكروه ، و الجمع طوَّع (...)قال ابن سيدة : وطاع يطاع و أطاعلان وانقاد : و أطاعه إطاعة و انطاع له كذلك .و في التهذيب : وقد طاع له يطوع إذا انقاد له بغير ألف ، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه فإذا وافقه فقد طاوعه (..) و رجل طيع أي طائع.»(1)يرتبط اللفظ في معناه بفعل الطاعة و الانقياد، فالرجل الطيع هو الذي يمتثل للآخر و يلين له دون إكراه، في المقابل قد ينحرف اللفظ للنقيض فيصبح الآخر مجبرا نظرا لفقدانه القدرة على الرفض.

أما مصطلح التطويع –من المنظور السيميائي-فقد عرفه كل من غريماس و جوزيف كورتيس بأنه بنية تعاقدية يتبادل فيها طرفا التواصل وجهات نظريهما، إذ يسعى المرسل

المُطوِّع من موقع سلطته إلى دفع المرسل إليه- المُطوَّع إلى تنفيذ برنامجه الحكائي المعروض عليه.(2)

ومن هذه الرؤية الاصطلاحية بالذات يتموقع التطويع في خارطة الحكي عند "ياسمينة صالح"لتصبح حركية الشخصيات ، و علاقاتها ببعضها البعض محورا أساسيا يعكس تجليات التطويع و آلياته التواصلية.و أولى هذه الشخصيات "إدجار دي شاتو" الذي حاول من موقع سلطته إجبار الجزائريين على تنفيذ أوامره طوعا أو كرها ،ويتجلى برنامجه الحكائي للتطويع في ثقافة الاستيطان فهو«واحد من أولئك الذين حملوا حقدهم الدفين إلى قرية باراناس ، والحال أنه حاول جاهدا إقامة توازن خاص بفكره و سياسته العسكرية إزاء فكر وطباع الناس هناك ، كرجل يكره العرب و يستفيد من كراهيته لهم أيما استفادة».(3)

إن تأكيد الشخصية على الفعل الممارس ضد الآخر، يقود الذات المدركة إلى استغلال قدراتها ومؤهلاتها. لنقل سياستها التطويعية من التجريد إلى التشخيص عبر فعل الإقناع فيقترح المُطوِّع/ ادجار دي شاتو من الوجهة التداولية مواضيع ايجابية (القيم الثقافية) المتجسدة في شعار فرنسا (الحرية ،المساواة، الإخاء) ،الهادف لإغراء المُطوَّع/ القروي مادام عالمه بلا أفق و لاماض و لا مستقبل.في المقابل قد يلجأ المُطوِّع إلى مواضيع سلبية (ضروب التهديد) كأن يثير في المُطوَّع الشعور بالعجز و الخوف نتيجة تعرضه لكل أنواع التعذيب،حينها تفقد الشخصية المُطوَّعة الإحساس بفاعليتها، فيصبح الشعور بفقدان الهوية،و الانكسار، و الصمت هي المسيطرة على سلوكها.

إن رغبة " ادجار دي شاتو في التطويع قد دفعت به إلى البحث عن أساليب متعددة كالدعاية، وهي ترسيخ مبادئ فرنسا في ذهن العامة، بحثهم على ترداد قوتها ،و حضارتها ونشرها على نطاق واسع بهدف حصول إجماع حولها(4). و قد كانقدور من بين الشخصيات التي تحاول ترسيخ هذا الاعتقاد، و التأثير على القرويين البسطاء عن طريق خطاب مشفر يدحض من خلاله قوة الآخر / الثوري، و يخرجه في صورة المتمرد والعاصي « إنها هذه الحرب القذرة يا سي السعيد ، يريدون إخراج فرنسا ولية نعمتهم، ولو خرجت فسوف

تأكلنا الكلاب ..الأغبياء ! يتصورون أنهم يقدرون على الحرية والاستقلال!».(5)
إن البحث عن شخصيات قابلة للتطويع دون عناء قصد تلقينها لمبادئ سياسة فرنسا من بين مقومات التطويع ، فكانت شخصية حمزة القروية في تركيبها الفزيولوجي و النفسي هي الأكثر استيعابا و استسلاما. فإستراتيجية الضرب على الوتر الحساس تعد من العناصر الأساسية التي يقوم عليها التطويع حيث تستغل نقاط ضعف المتلقي ،أو قابليته للتصديق أو سذاجته للتأثير فيه، و تدجينه و التلاعب به.(6) يقول الراوي:« كان "حمزة" كلبا قذرا في بلاط الكولونيل ، ومع ذلك كان يؤمن في قرارة نفسه أنه بإمكانه أن يكون سيدا (ليس على الفرنسيين الذين اغتصبوا أمه منذ عشرين عاماكما تقول الحكاية) بل سيدا على قرية وعده "ادجار" بعموديتها ذات يوم ..فكان يحاول أن يغير صورته في عيني " ادجار" عبر اقتناعه أنه ينتمي إلى فرنسا أكثر من أي شيء آخر ، و أن منصب العمدة ما هو أكثر من ولاء شرعي متجدد يؤديه للفرنسيين أنفسهم».(7)

يشير المقطع السردي إلى تبادل الأدوار فبعدما كان" حمزة" مُطوَّعا" من طرف "ادجار دي شاتو" أصبح مُطوِّعا يمتلك برنامجا حكائيا يهدف من خلاله إلى إخضاع المتلقي/ القروي، و سلب حريته، و جعله أداة طيعة لخدمة أغراضه. و مادام التطويع كما عرفه" فيليب برتون" هو كذب منظم و فعل عنيف و مكره(8)، فإن الأساليب التي يستخدمها المُطوِّع تتعدد و تختلف.

« قالت الحكاية أيضا أن حمزة هام حبا بإحدى فتيات القرية التي كرهت غروره الفرنسي فلم يكن صعبا عندئذ أن يختار حلا يرضيه لينال مراده دون أن يخسر شيئا فلجأ إلى الاغتصاب . كان الاغتصاب فكرا فرنسيا في ثقافة "حمزة" ، بحيث أن والده لم يتزوج من أمه، بل اغتصبها ، و هو ليس مجبرا أن يفعل شيئا آخر غير الاغتصاب كوسيلة انتقامية من القرويين التعساء و تقربه أكثر من " ادجار"، لكن النهاية لم تكن كما كان يشاء أن تكون».(9)تؤول فكرة الاغتصاب القيمة المعرفية للمُطوِّع الذي يتمتع بسيادة مطلقة نظرا لامتلاكه ،واطلاعه على فكر و ثقافة الآخر/ المُطوَّع. فالثقافة الغربية في إستراتجيتها

الاستيطانية مدركة لرمزية المرأة ،و قدسية جسدها في المنظور العربي، لذا فانكسار الآخر/ القروي لن يكون إلا بتدنيس هذه القدسية.

ووفق هذا التصور الإيديولوجي يستنتج كل من غريماس و كورتيس مختلف التغيرات السوسيو ثقافية التي تبين وضع المُطوَّع في التراتبية الاجتماعية. فهو إما يتمتع بسيادته (الحرية- الاستقلالية) و إما يكون طائعا (الطاعة- العجز) و إما معتزا بذاته (الحرية- الطاعة)و إما ذليلا (عدم الاستقلالية-العجز).(10)

ويمكننا توضيح ذلك بالرسم البياني التالي:

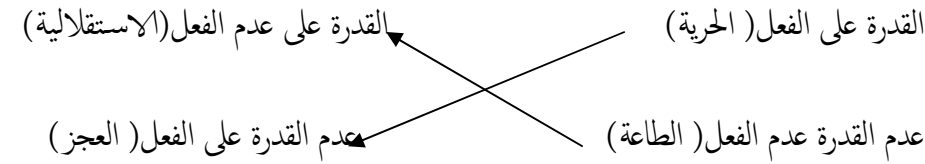

يبين لنا المخطط مجمل المواقع المفترضة التي يمكن أن يشغلها المُطوَّع على المستوى السردي، و هي خاضعة لعلاقة المُطوَّع(المهيمن عليه)بالمُطوِّع(المهيمن) ، فالبرنامج الحكائي للتطويع لن يتحقق إلا بالنظر إلى ردة فعلا لمُطوَّع و قراره ، في هذه الحالة يضطر إلى ممارسة فعله التأويلي فإما يقبل و إما يرفض الاقتراح المعروض عليه.فكفايته التأويلية مشروطة بموقعه في التراتبية التواصلية(11).

فإذا كان أقل ضعفا و مكانة من المُطوِّع، فإن فعل التطويع سيتحقق(حمزة/ قدور). أما إذا كان المهيمن عليه يمتلك القدرة على الخروج من بوتقة الاستسلام و الخضوع فإن برنامج التطويع سيفشل و يتم انتقاله من دائرة الفعل المتحقق إلى دائرة الفعل غير المتحقق (الفلاحون).

يتكرر موتيف الشخصية المستلبة جسديا، و اجتماعيا، و ثقافيا في رواية "بحر الصمت" إذ يكشف السرد عن شخصية " سي البشير" الإقطاعية و المهيمنة على عقول الفلاحين القرويين. «كانوا فقراء ، كلهم من عمال الأرض الذين حرثوها بأظافرهم لكي يكون أبي سيدهم

وولي نعمتهم ، صدمني حزنهم ..لم يكن باستطاعتي لحظتها أن أستوعب ذلك الحزن الذي يجعل الضحية تبكي على الجلاد، و تترحم عليه، و تغري فيه..كان والدي سيدا على هؤلاء جميعا..كان غنيا و هذا يكفي ليصنع منهم عبيدا في الأرض التي ورثها عن أبيه و أجدادهكانت سلطته سوطا من نوع آخر، كان قاسيا و محاورا..دبلوماسيا يجيد إقناع المظلوم أنه معتد و ظالم .»(12) يتحول الفقر إلى دافع للطاعة ،لأنه السبيل الوحيد لاستمرارية الحياة و قتل شبح الجوع و التشرد. والرغبة في تطويع الآخر لا تتبناها شخصية بمفردها طيلة المسار السردي، بل قد تنتقل الرغبة و تتوزع بين الشخصيات التي ترتبط ببعضها البعض. و بخاصة تلك التي تملك مؤهلات التمركز، و التموقع ضمن التواصل الاجتماعي.فشخصية " سي البشير" لا تختلف في رؤيتها و فلسفتها للواقع المعيش عن تصور ابنه" سي السعيد"الذي أورثه فكرة تطويع الآخر" و إجباره على الامتثال لأوامره «كان بلقاسم بالنسبة لي أشبه بفزاعة مخيفة الشكل توضع وسط حقل مشاغب ..فكان الفلاحون ،دون استثناء، يكرهون شكله ، وعينيه،و كنت أستغل كرههم الشديد له لأتحكم فيه،و فيهم، على حد سواء»(13).

غير أن نتائج التطويع لا تصل دائما للإيجابية المفترضة، فالأداء الخطابي للمُطوِّع قد لا يحقق الكفاية التواصلية القائمة على كسب مودة المتلقي / المُطوَّع و ثقته، و بخاصة إذا تضاربت مصالح الشخصيات / الفواعل.

"فقدور" عمدة القرية كان يطمح لتزويج ابنته "زهرة من "سي البشير" كي تقوى سطوته ونفوذه على القرويين «بعد الأربعين ، جاءني "قدور" يذكرني بوصية أبي: "الزهرة " لك يا سي السعيد ".. قالها و هو يهز برنوسه ، ورأسه معا..فحركت رأسي نافيا ..آسف!»(14) يفقد التطويع حضوره لأنه ينتعش بفعل الإقناع، وإذا تم غياب التواصل بين الشخصيات فإن العلاقات ستتخذ منحى آخر، حيث تتوسع دائرة الكراهية المضمرة، ليبقى الأداء اللغوي للطرفين قائم على التحايل و المجاملة، و تفادي العنف بمختلف تجلياته و مظاهره .

لأن كلمن المُطوِّع والمُطوَّع ينتميان إلى فئة الشخصيات الحاكمة(إقطاعي / عمدة القرية). «كما

تعرف، فالليلة عرس ابنتي "الزهرة " ، فلا تتأخر علينا ياسي السعيد! (...) نظرت إليه وابتسمت ..و كنت أعرف أن ابتسامتي تلك سوف تغيضه، و تمنحه سببا آخر ليكرهني أكثر ، قال "قدور" و هو يتأهب للانصراف : - تمنيت لو كنت أنت من أضع يدي عليها هذه الليلة ، و لكن ، لا بأس ..كل شيء مكتوب!» .(15) و يمكننا توضيح ما سبق طرحه من منطلق مخطط صاحبا معجم السيميائية (غريماس– جوزيف كورتيس):(16)

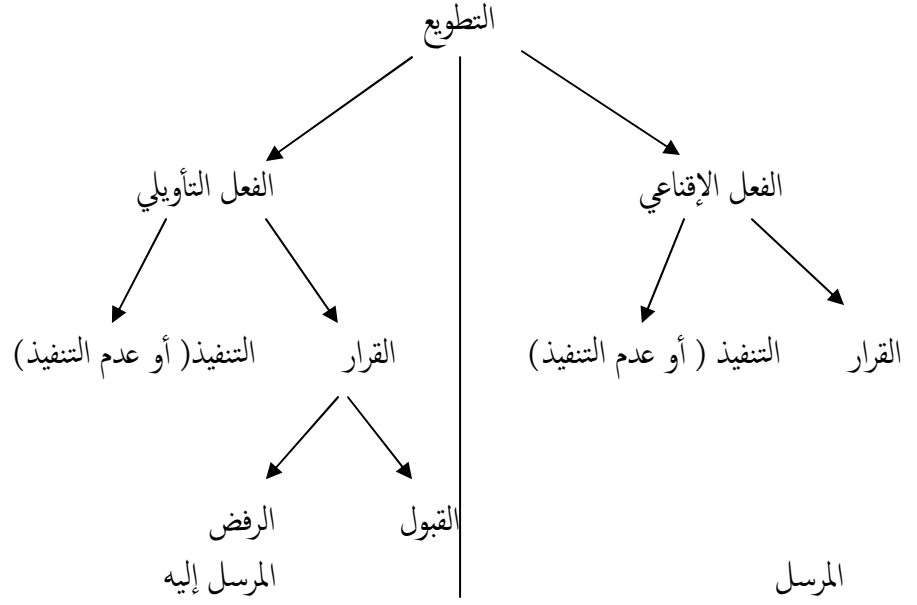

يتضح من خلال هذا المخطط أن طرفي التواصل يشتركان في اتخاذ القرار،لكنهما يختلفان في طبيعة القرار المتخذ . يتبنى المُطوِّع برنامجا معينا (ادجار دي شاتو، حمزة، سي البشير، سي السعيد، قدور) و يحاول تجسيده و إخراجه من مرحلة التخطيط والتجريد إلى مرحلة الإنجاز عبر فعل الإقناع. لأن برنامج التطويع يستطيع أن يبقى في حيز القرار والفكرة دون أن يصل إلى التنفيذ. كما تختلف مقومات التطويع بين الشخصيات المُطوِّعة

وهذا راجع إلى تباين المرجعيات الثقافية، و مستوى التفكير، وطبيعة العلاقات بين المهيمن و المهيمن عليه.أما الشخصيات المُطوَّعة في ممارستها للفعل التأويلي، فإنها تتخذ القرار سواء بالرفض أو القبول بحسب موقع الشخصية في التراتبية الاجتماعية :

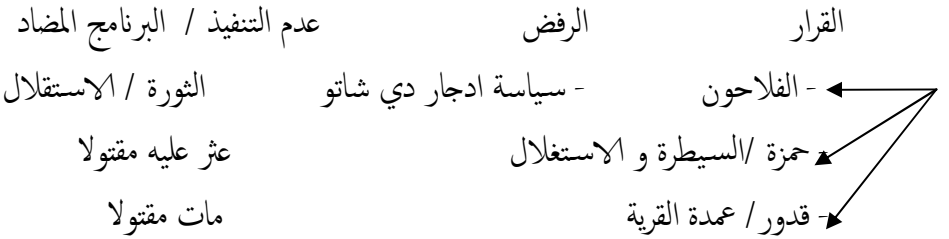

القرار القبول التنفيذ/ عدم الاستمرار

الفلاحون ← سي البشير إقطاعي «الأرض هي الهوية الوحيدة التي تلقى عليهم أحلامهم(..)حتى و هم يذلون أنفسهم لأجلها، و لأجل قوتهم فيها» .(17)

سي السعيد إقطاعي « الحرب التي استغلها الفقراء والبسطاء أداة عصيان و تمرد..كنت أرى الخطر قريبا. الفلاحون أخطر من الحرب عندما يستغلون الفرص للتمرد على الأرض ».(18)

لا يتعامل كل من غريماس و كورتيس مع العوامل بوصفها ذواتا فاعلة فقط، بل باعتبارها ذواتا منفعلة (الفلاحون) التي تحمل تاريخا من آلام الاستعمار، و اغتصاب الهوية وتدنيس الجسد، كما تحمل تاريخا من الأحلام الصغيرة التي بدأت تتنامى وتكبر بفعل القدرة على المواجهة ،وإحباط مخطط التطويع و تغييره ببرنامج مضاد يتماشى وطموحاتها.

تلعب القدرات الذهنية و المؤهلات اللغوية دورا هاما في تغيير معتقدات الآخر

وقناعاته و موقفه، لذا يؤدي التلفظ دورين متباينين يضطلع المتلفظ في أحدهما بحمل المتلفظ له على مشاركته معتقداته، ويراهن في ثانيهما على تغيير معتقدات المتلفظ له وحفزه على استبدالها بأخرى. وقد وضح جوزيف كورتيه "المتلفظ" دورين في البياني التالي:(19)

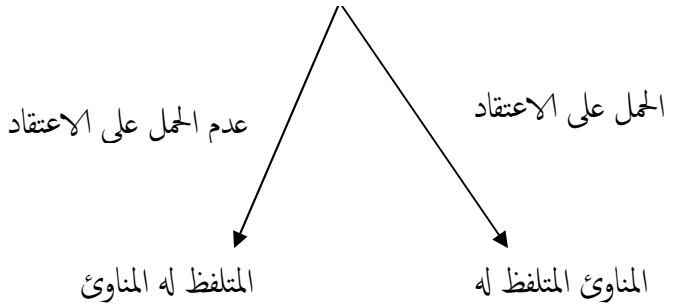

يدرج غريماس جهة الاعتقاد ضمن الجهات الفعلية التي تهم العلاقة التراتبية بين ذاتين متباينتين : ذات الفعل (ذ1)(ادجار دي شاتو/الشخصية الإقطاعية) والذات الموجهة (ذ2) (الفلاحون).و تتفرع ثلاث جهات مركبية من جهة الفعل، وهي: جهة فعل الفعل ،و معرفة الفعل، و فعل الحمل على الاعتقاد . وتنتمي جهة الفعل و جهة الاعتقاد إلى عالم معرفي واحد. فالفعل الإقناعي و الفعل التأويلي ما هما إلا إجراءان معرفيان ينتهيان في الحالة الأولى بالحمل على الاعتقاد ،و في الحالة الثانية بالاعتقاد.(20)

يتضح من خلال هذا القول أن إقناع المتلفظ له رهين بمدى تمثله للمعرفة التي يتلقاها ويستوعبها. فالمتلفظ يضطلع بجهة الحمل على الاعتقاد لتطويع المتلفظ له. ويعد غريماس التطويع عملية فعلية تتم وفق المحاور التالية :

-الرغبة في القول: ما قصده الشيخ العالم الجليل عباس من وراء تأنيبه لسي البشير ومعاملته السيئة للفلاحين«جئت إليك يا سي البشير كي أعرض أمامك حالة الفلاحين الذين يشتغلون في أرضك ، لقد أوكلوني مهمة الحديث نيابة عنهم».(21)

-القدرة (الإثارة):لا بد أن يملك المتلفظ/ المُطوِّع الجرأة و الحضور المتميز، و القدرة على التأثير في المتلفظ له، و حمله على الاعتقاد.قصد تطويعه و تغيير قناعاته« رأيت الشيخ

عباس يدخل بعباءته البيضاء ، و لحيته الصهباء، و مشيته المتعالية التي تثير الدهشة حقا (...) كنت أتأمل منظر هذا الرجل الذي استطاع أن يكسب احترام الجميع، حتى الفرنسيين احترموه، عندما شعروا أنهم لا يقدرون على التصادم معه.(..) رأيت أبي و قد صار شاحبا حد الموت ، كانت مقدمة الشيخ بالتوبيخ و كنت أنظر إلى والدي منتظرا ردة فعله، كان جامدا ينزف عرقا..كأن المفاجأة شلت تفكيره ».(22)

-المعرفة(الحجاج المنطقي و البرهنة العلمية): و ذلك بالتركيز على المهارات اللغوية والمناورات التلفظية لإقناع المتلقي، و سلب قدرته على الرد ،و مقاومة الخطاب التطويعي فهو يجمع بين أساليب الإقناع و أساليب الخطاب « أضاف العالم الجليل:العدل و الإنصاف من مكارم الأخلاق ..و الله لا يفرق بين عبد و آخر إلا بالتقوى ، و أنا لا أشك أبدا في تقواك يا سي البشير . لهذا جئت إليك كصديق فأرجو أن تراعي ظروف هؤلاء الفلاحين المسلمين، و تكف البلاء عنهم..و تدفع أجورهم المتأخرة! (..) الأرض كما الحياة، خلقها الله للجميع، دون أن يستأثر بها أحد على الآخر، وعندما نستوعب أن مصيرنا لا بد عائد إلى الأرض، فسوف يصبح سهلا علينا أن نتقاسمها مع الآخرين»(23).

نستنتج من هذه المحاور أن سيميائية التطويع تجعل معرفة القول و الحمل على الاعتقاد يتداخلان في إطار البعد المعرفي ، ذلك أن التطويع يقتضي استخدام الحجج و البراهين .والقدرة على الإقناع تعتبر إنجازا معرفيا.و يبقى التأثير هو الهدف الرئيس لتغيير معتقدات المتلقي/ المتلفظ له و حمله على الاعتقاد .أما إذا كان المتلقي طرف غير سلبي يتمتع هو الآخر بمؤهلات معرفية و ذهنية. فإنه يعيد النظر إلى موقفه فإما يقبل ما يعرض عليه فيتحقق اعتقاد المتلفظ فيوصف بالمتلفظ له (المنخرط)، أو يقوم بالرفض فيوصف بالمتلفظ له المناوئ(المعيق)(24).و يبقى مصطلح التطويع –من المنظور السيميائي- لازال يحاول إرساء دعائمه و مستحدثاته المعرفية عن طريق آلياته، و خصائصه لإبراز أساليب التواصل بين الأنا المُطوِّعة و الآخر المُطوَّع.

الهوامـــــش والمراجـــــع

1-ابن منظور،لسان العرب، دار الجبل، دار لسان العرب ، بيروت ، 1988،مادة طوع،ص2720

2-Greimas (A.J) & Courtés (J),sèmiotique Dictionnaire raisonné de la théoriedu langage, hachette›1979›pp135-136.

3- ياسمينة صالح، بحر الصمت،منشورات الاختلاف،ط1، الجزائر،2001، ص10.

4- محمد الداهي، سيميائية التطويع ،مجلة عالم الفكر،العدد1، المجلد40 يوليو-سبتمبر 2011،ص110.

5- ياسمينة صالح، بحر الصمت،ص10.

6- محمد الداهي، سيميائية التطويع،ص111.

7-ياسمينة صالح، بحر الصمت، ص10.

8-philippe breton›la parole manhpulèe›èd la dècouverete› &syros ,paris,2000,p23.

9- ياسمينة صالح، بحر الصمت، ص11.

10-Greimas (A.J) & Courtés (J), sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, pp220-222.

11- ibid pp 220-222.

12-ياسمينة صالح، بحر الصمت، ص14.

13-المصدر نفسه، ص15.

14-المصدر نفسه،ص14.

15--المصدر نفسه،ص21.

16-Greimas (A.J) & Courtés (J),sèmiotique Dictionnaire raisonné

de la théorie du langage pp135-136.

17-المصدر نفسه،ص16.

18--المصدر نفسه،ص17.

19-josephcourtés,analyse sémiotique du discours,de l'énoncé à l'énonciation ,Hachette uperérieur,1991,pp

251-253

20-Greimas (A.J)Du sensii,essais sémiotiques,seuil,1983 ,p117.

21-ياسمينة صالح، بحر الصمت ،ص23.

22-المصدر نفسه،ص24.

23-المصدر نفسه،ص24.

24-Greimas (A.J)Du sensii,essais sémiotiques ,117.